النقد الموضوعاتي بين المرجعيات الغربية والممارسات العربية

Thematic criticism according to west word references and Arabic practices

د- عمي الحبيب 1.* د. شيبان سعيد 2.

1جامعة بجاية ، lahbib.ammi@univ-bejaia.dz

2جامعة بجاية ،said.chibane@univ-bejaia.dz

تاريخ الإيداع: 2021/09/01 **تاريخ المراجعة**: 2021/ 12/10 **تاريخ النشر**: 2022/03/30

ملخص:

إن النقد الموضوعاتي باعتباره محاولة للإحاطة بالنص الأدبي، يسعى إلى أن يكون منفتحا على المناهج الأخرى لسبر المناطق المعتمة في الخطاب الأدبي، وهذا ما ينجر عنه أن التحديد النظري لهذا المنهج أصبح مطلبا صعبا.

وقد جاءت التمثلات العربية لهذا المنهج متفاوتة ومتباينة، فإلى أي مدى ظلت رهينة ترجمة المصطلح التي شابها كثير من الإكراهات، مما أفرز ما يناهز ثلاثة عشر مقابلاً لمصطلح (thématique) في اللغة الأجنبية.

الكلمات المفتاحية: الموضوعاتية، العائلة اللغوية، القرابة المعنوية، الإحصاء.

Abstract:

Thematic criticism, an attempt to study literary texts from different perspectives, is widely used with other critical approaches to explore the deeper meaning of the literary discourse, making the limitation of its theoretical scope difficult to be attained.

The Arabic representations of this approach are varied, although they are generally restricted by the translation of the term.

Keywords: *Thematics, linguistic family, closeness in meaning, statistics.*

تقديم:

إذا كان جان بيار ريشار (J.P. Richard) هو الناقد الذي أسس حقاً للمنهج الموضوعاتي بالشكل الذي استوى عليه اليوم، وجعل منه مشروعاً متكاملا وقائما بذاته، فإنّ الفضل لا يعود إليه وحده، لأنّ الموضوعاتية لم تولد دفعة واحدة، ولم يشتدّ عودها إلاّ بعد جهود مضنية، خاضها قبل ريشار الرواد الأوائل المؤسسون. فجيل الطليعة، أو المؤسسون هم الذين وضعوا اللبنات الأولى، والركائز المعرفية التي قوّمت ظهر النقد الموضوعاتي خلال المراحل اللاحقة.

* - المؤلف المراسل.

وأهم هؤلاء الرواد، وأشدهم تأثيراً في وضع الأسس المعرفية للموضوعاتية: "غاستون باشلار"، Bachelard (.G) و"إدمون هوسرل" (E. Husserl)، و"جان بول سارتر" (J.P. Sartre)الذين خطوا بصماتهم في إرساء معالم هذا المنهج الذي كان حينذاك يتحسس طريقه نحو التموقع في الساحة النقدية، كمشروع جريء يسعى إلى الإحاطة بالعوالم الإبداعية لكاتب ما، أو لمرحلة ما.

وننوّه هنا إلى وجود أسماء أخرى عديدة، خاضت في التأسيس لهذا المنهج، إن كان ذلك عن قصد، أو عن غير قصد، على غرار رايمون (Raymond)، و ألبير بيغين (A. Beguin) المنتميين إلى ما يعرف بالنقد الجديد. فقد حاولا البحث عن طريقة معالجة نصيّة، تتقاطع في مفاصل كثيرة مع المقاربة الموضوعاتية. يضاف إليهما بعض الإرهاصات الموضوعاتية عند ج بلين (G.Belin) وآخرين.

كما أن بعض أعلام النقد المعاصر، لم يعدموا - في مشاريعهم النقدية - نُتفاً من مقولات النقد الموضوعاتي، ونخص بالذكر هنا "رولان بارت"(R. Barthes) الذي كان كتابه «"ميشليه يكتب عن نفسه بنفسه" نوعاً من التحقيق العملي لنمط القراءة الموضوعية [الموضوعاتية][1]وهذا ما يصرح به "رولان بارت" في مقدمة هذا الكتاب، كما يجب علينا أننتذكر أن بارث قد أفرد فقرة في كتابه الذي بعنوان S/Z للحديث عن القراءة الموضوعية[الموضوعاتية]»[(2)].

ويكاد يجمع النقاد على أنّ غاستون باشلار - الذي لا يُصنّف عادة ضمن الأدباء أو النقاد نظراً لميولاته الفلسفية - يُعدّ بلا منازع « الأب الروحي للنقد الموضوعاتي، الذي كان فيه رائداً موضوعاتياً، لاحق الفضاء والحلم والزمن والكونية »[(3)]. فركز اهتمامه على "معرفة المعرفة" ، وتتبع فينومينولوجيا الأشياء والكلمات، وهذا ما أدى به إلى التأمل في الإبستيمولوجيا انطلاقاً من العلوم الإنسانية.

أولا- آليات الاشتغال الموضوعاتي وإكراهات الترجمة.

1 – **الإحصاء كخلفية مؤسسة** : تقتضي المقاربة الموضوعاتية الاستعانة بآلية ضرورية، ألا وهي الإحصاء، أو "الكنس"؛ ويجب أن يشمل "الكنس" غالبية المفردات الواردة في العمل الأدبي، إن لم يكن كلها. وإذا كانت هذه الآلية ليست كل شيء في النقد الموضوعاتي، إلاّ أنها تكتسي أهمية بالغة من حيث مساعدتها على تلمس الخلية الرئيسية، أو الموضوع الرئيسي الذي يُعدّ المحور الدلالي للقصيدة أو الديوان، بشكل عام(إذا كنا نتحدث عن الشعر). من منطلق أنّ المنهج الموضوعاتي ينزع نحو التعامل مع مجموع قصائد الديوان كقصيدة واحدة، أي وبمعنى آخر؛ يعتبر الديوان كله قصيدة طويلة ينتظمها خيط دلالي خفي، حتى وإن بدت القصائد - ظاهرياً - متنافرة وغير منسجمة. فهذا الانسجام موجود، ولكنه غافٍ، ولا يمكن أن نعثر عليه في السطح، لأنه ملمح مضمر يسكن في الأعماق القصيّة. ومن هنا تأتي ضرورة التعامل مع الديوان على اعتباره قصيدة طويلة متآلفة ومتناغمة، وهذا بعد أن نكتشف داخلها تلك العلاقات الخفية.

وللإحصاء ضوابط ينبغي مراعاتها؛ فعند إحصاء مفردة ما، يجب إحصاء صيغها الاسمية والفعلية كلها، ثم إحصاء مترادفات هذه المفردة، وبكافة الصيغ، وبعد ذلك نحصي المفردات ذات القرابة المعنوية مع هذه المفردة، مستندين في كل ذلك على مفهوم "العائلة اللغوية" الذي يقوم على ثلاثة محاور أساسية:

- الاشتقاق
- الترادف
- القرابة المعنوية (parenté sémique).

فالمفردة قد تتجلّى في صيغ مختلفة، غير أنها - في نهاية المطاف- ليست سوى ظهورات (occurrences) لهذه المفردة نفسها، وهذا كله يصبّ في سياق رصد الفعل المحرّك لدى المبدع.

وهكذا، فعند إحصاء مفردة "الموت" مثلاً، فإننا نقوم بإحصاء صيغها الاسمية والفعلية كلها مثل: مات، يموت، ميّت، موتى.. إلخ، ثم ننتقل إلى إحصاء مرادفاتها، وبكل صيغها أيضاً مثل: شنق، كفّن، استشهد، فناء، الردى، الإعدام، الحشر.. إلخ.

وفي مرحلة ثالثة، نعمل على إحصاء وكنس المفردات ذات القرابة المعنوية مع الموت، مثل: تغيب، المساء، الغروب، تنتهي، الدجى، ارتخت، نحيب، الباردة، الغروب، الصمت.. إلخ، وبمختلف الصيغ والظهورات التي تجلّت عليها. وبنهاية الإحصاء يمكننا استخراج أهم المعاجم الدلالية الواردة في العمل الأدبي.

وتجدر الإشارة في هذا المستوى إلى أن الإحصاء سياقي بالأساس، بمعنى أنّ مفردة الموت التي تعنينا قد ترد في سياق غير سياقها المعجمي، كأن نقول: "مات حُبّا"، فلا يتم إحصاؤها لأنه لا علاقة لها دلالياً بمعجم الموت.

ومن هنا، فإنّ التكرار، أو "الاطّرادية" - كما ترجمها بعض اللسانيين - هو الأساس في تحديد الموضوعات، لأنّ الموضوع يتصف بـ"العودوية"؛ بمعنى أنه يتجلّى على امتداد مساحة العمل الأدبي، لأنّ« التكرار أينما كان دليل على الهَوَس »[4].

2 - إشكالية المصطلح وتباين الترجمة:

الموضوع (thème) هو المبدأ الذي تتقاطع عنده جميع المفاهيم التي لها صلة بالمنهج الموضوعاتي. وقد ورد مصطلح "الموضوعاتية" في المعاجم العربية نسبة إلى الموضوع. وأما في المعاجم العربية القديمة، فإنّ هذا المصطلح لم يرد بهذه الدلالة الحديثة.

جاء في معجم كيي (Quillet) للغة الفرنسية أن الموضوعاتية (thématique)« تتعلق بموضوع كلمة معيّنة (..) وهي خاصة بموضوعات عمل أدبي أو فني.. وهي مجموع الموضوعات الخاصة بمؤلف في مدرسة معيّنة، وفي عصر معيّن.. مثل موضوعاتية هوجو (Hugo)، الموضوعاتية السوريالية (surréalisme)، والتكعيبية (Cubisme)»[5].

وفي موسوعة لاروس (Larousse)، فإنّ الموضوعاتية (thématique) هي« صفة خاصة بموضوع (..). والنقد الموضوعاتي (critique thématique) هو النقد الذي يدرس الموضوعات الدائمة في مؤلف ما »[6].

وهو بالإضافة إلى ذلك مجموع الموضوعات التي يطوّرها كاتب أو مدرسة ما، ومن هنا فالدراسة الموضوعاتية تمس مختلف المواضيع المكوّنة لأشكال الخطاب الفنية والثقافية.

ومن ثمّ، فالموضوعاتية على صلة وثيقة بحقول فنية وثقافية متنوعة؛ كالموسيقى والرسم، كما أن موضوعات كل اتجاه فني تختلف عن موضوعات الاتجاه الآخر، تبعاً لخصوصية كل اتجاه « فاللازمة الموسيقية

مثلاً التي تتكرر بصفة مستمرة، تمثل جوهر العمل الموسيقي في لحن ما؛ إذ هي موضوع تلك المقطوعة، والشيء نفسه في فن الرسم، حيث أنّ اللازمة التي تتكرر في المدرسة التكعيبية - على سبيل المثال- هي تلك الأشكال المكعبة التي تطغى على أسلوب وتقنية هذه المدرسة في الفن التشكيلي. وعلى ضوء ما تقدم يكون المتكرر هو الملمح المميز لأيّ عمل فني »[7].

أما في حقل الأدب، فالموضوعاتية تمثل اتجاهاً نقدياً يهتم« بدراسة وملاحقة الموضوعات المهيمنة في خطاب أدبي ما بالنسبة لمؤلف واحد، ولمدرسة معيّنة »[8]. وقد لا يعدّ هذا جديداً في الأدب العربي - وإن لم يتمّ الكلام عنه في أوانه - فكثيراً ما خضع هذا الأدب لحقول وتقسيمات هي في الأصل ذات طابع موضوعاتي، فكان ذلك أقرب إلى الممارسة الموضوعاتية، رغم افتقارها إلى الأسس المعرفية والنقدية.

وأغراض الشعر العربي التقليدية خير دليل على ذلك؛ فالغزل، والرثاء، والهجاء، والمدح، وبقية الأغراض المعروفة، ليست في نهاية المطاف سوى أغراض ذات طابع موضوعاتي.

ولا يختلف الأمر كثيراً في الآداب العالمية منذ الإغريق واللاتين، والتي كانت تنحصر في موضوعات الملحمة والتراجيديا والكوميديا. وهذا ما حدا ببعضهم إلى الدعوة إلى إدراج هذه "الإشارات الموضوعاتية" في الآداب القديمة ضمن مصطلح " الرؤى الموضوعاتية"، فقد خاض هؤلاء في نوع من الممارسة الموضوعاتية دون اهتداء إلى المستوى النظري، وبالتالي يمكن أن تُعدّ بعض النظريات النقدية الحديثة تجسيداً لممارسات قديمة.

وإذا عدنا إلى المصطلح وترجماته إلى اللغة العربية، فإننا نعثر على اجتهادات كثيرة، ولكل مصطلح مقترح مسوغاته على المستوى الاصطلاحي والسياقي. ويُعددها يوسف وغليسي فيرى أنها أكثر من أن تحصى: (تيماتيكية، ثيماثية، الغرضية، الأغراضية، المنهج المداري، الجذرية، التيمية، الموضوعية، الموضوعاتية، المواضيعية..)[9].

غير أنّ المصطلحات الأكثر دوراناً في النقد العربي هي (الموضوعية/ الموضوعاتية/ المواضيعية). فقد اقترح جوزيف شريم - مثلاً - مصطلح "المواضيعية" كمقابل للكلمة الفرنسية (thématique) تفاديا للالتباس الذي قد تثيره كلمة"موضوعية" التي قد تعبّر - عادة - عن المقابل الفرنسي (objectivité).

أما سعيد علوش فقد ترجمها إلى "موضوعاتية"[10]، والأمر نفسه بالنسبة لهاشم صالح.

ومن أشهر الذين تبنوا مصطلح "الموضوعية"، نجد عبد الكريم حسن الذي لم يدّخر جهداً في الاستشهاد بحشد من النقاد العرب الذين ذهبوا هذا المذهب، وهو يعتقد أنه من الطبيعي أن يتبنى هذا المصطلح الذي راهن عليه نقاد معروفون قبله على غرار عز الدين إسماعيل، وفؤاد زكريا، ويوسف خليف.

إنّ كلمتي (thème)، و(objet) في اللغة الفرنسية حسب عبد الكريم حسن، تدلان في الأصل على المعنى نفسه، رغم أنّ الأولى اصلها يوناني، والثانية أصلها لاتيني، ولذلك « فكل ما هو (thème) بوصفه موضوع تفكير أو تأمل أو نظر، هو(objet). وكل ما هو (objet) هو (thème)، لأنه قابل لأن يكون موضوع تفكير أو تأمل أو نظر. ولكن (objet) تتقابل مع (sujet)، ولا تستطيع كلمة (thème) أن تحقق هذا التقابل »[11].

ومن أجل رفع اللبس الذي قد يشوب مصطلح "موضوعية" الذي يقترحه مقابلاً للمصطلح الفرنسي (thématique)، والذي قد يفيد المعنَيْن معاً، فإنه يدعو إلى العودة إلى السياق في كل مرة من أجل تمييز

المراد من الكلمة. ويتابع محاولاً توضيح الفكرة« فإذا عجز السياق عن توفير هذه الضمانة، وضعنا المقابل الفرنسي (objectivité) إلى جانب الكلمة العربية "موضوعية" في كل مرة نعبّر فيها عنها. وتركنا الكلمة العربية مفردة من غير مقابلتها الفرنسية حين نعبّر عن (thématique)»[12].

ومع هذا نحس بأن الناقد لا يكاد يحقق غرضه من رفع الالتباس، بحيث إنه يعترف ضمنياً بعجز ترجمته الذي قد يحصل من جراء استخدام كلمة "موضوعية" بمعنيَيْها المختلفيْن. لذلك نراه يجيز استعمال أي مصطلح من المصطلحات العربية المتواترة(موضوعية - مواضيعية -موضوعاتية)، معتبراً ذلك عملاً مشروعاً، ويُعبّر عن موقفه من اللغة، يقول:« فإذا طلبنا التكثيف والاقتصاد اتّجهنا إلى استخدام كلمة موضوعية، دون أن نرى فيما يثيره من التباس أية عقبة(..) وإذا طلبنا التوسع اللغوي من أجل التحديد والفصل بين المعنيْن، اتّجهنا إلى إحدى الكلمتين "مواضيعية"، أو "موضوعاتية" على ما فيهما من ثقل بيّن »[13].

ومن ثمّ ينتهي إلى الإقرار بأنّ عملية الفصل بين المعنيْن المختلفين اللذين يثيرهما استعمال كلمة "موضوعية"، لا يكفلها سوى استعمال إحدى الكلمتين الأخريين: "موضوعاتية"، أو "مواضيعية"، في حين إن استخدام مصطلح "موضوعية" الذي يصرّ على "شرعيته" عاجز عن ضمان مثل هذا الفصل، الأمر الذي حدا به إلى تسويغ اختياره بعامل الاقتصاد اللغوي.

لهذه الأسباب وغيرها، فإنّ المقاربة الموضوعاتية لم تنل حظها بالشكل المطلوب في الخطاب النقدي العربي، لولا تلك المحاولات القليلة التي ذكرها سعيد علوش، وهي ثلاث رسائل جامعية[14]. مع العلم أنّ كتاب النقد الموضوعاتي لسعيد علوش نشر أواخر ثمانينات القرن العشرين، وهي كالتالي:

- عبد الفتاح كليطو، موضوعاتية القدر في روايات فرانسوا مورياك، رسالة ماجستير نوقشت بالرباط.
- كيتي سالم، القلق عند غي دو موباسان، رسالة دكتوراه بإشراف جان بيار ريشار.
- عبد الكريم حسن، الموضوعية البنيوية، دراسة في شعر السياب، رسالة دكتوراه بإشراف أندري ميكال وغريماس.

لذلك بقيت المقاربة الموضوعاتية في النقد العربي تراوح مكانها، وتتلكّأ في خطواتها، لأسباب حاول بعضهم حصرها في النقاط التالية:

- جدّة هذا النوع من الدراسات في الدرس النقدي الغربي نفسه، وافتقارها للمرجعيات النظرية، مما يجعل من النقد الموضوعاتي حقلاً غير واضح المعالم، فأصبح تمثّله صعباً وتطبيقه أكثر صعوبة .

- عدم اتضاح الرؤية في هذا النوع من الممارسات أثناء مقاربة النصوص العربية، ومحدودية القدرة على تطبيقها، مما أدى إلىتذبذب المصطلح ومفهومه ومبادئه في النقد العربي .

- مطاطية المفاهيم النظرية، وتماهيها، وانفلاتها من الضبط، مما جعلالموضوعاتيةموضوعاتيات في جانبها النظري.كما يرجع ذلك - ربما - إلى تشعب منابتها المعرفية، وأصولها النظرية« فنتج عن هذا الجدل متغيرات كثيرة تجعل القبض على ثوابت هذا النقد أمراً عسيراً »[15].

ثانيا: مدارات الموضوعاتية في النقد العربي :

تُعدّ تجربة علي شلق، في رأي بعض النقاد، من بين الممارساتالعربية الأولى في النقد الموضوعاتي، فرغم أنها لم تصل إلى حدّ الوعي المعرفي والإجرائي، كما أنها لم تتبنّ تياراً معيّناً، أو مدرسة معيّنة صراحة، إلاّ أنها كانت محاولة مميّزة ورائدة اكتسبت مقوّماتها الخاصة وفرادتها. فقد شكلت هذه التجربة عملاً موسوعياً ذا طابع تاريخي تتبع من خلالها الناقد صور (القبلة)، و(السمع)، و(العين)، و(الشمّ)، و(اللمس) في الأدب العربي عبر تاريخه.

غير أنّ الممارسة الموضوعاتية الواعية والمؤسسة في النقد العربي بدأت مع عبد الكريم حسن في مؤلفيه (المنهج الموضوعي - نظرية وتطبيق)، و(الموضوعية البنيوية - دراسة في شعر السياب)، الذي عدّه بعض النقاد أهم حدث موضوعاتي في النقد العربي، حتى أن وزنه في هذا المضمار عند العرب يضاهي وزن ج.ب. ريشار في النقد الموضوعاتي الفرنسي، ويُعدّ كتابه "الموضوعية البنيوية - دراسة في شعر السياب"، كما يقول يوسف وغليسي:« فاتحة عهدنا بهذا الشأن »[16].

هذا هو الإعلان الرسمي عن ميلاد الموضوعاتية في النقد العربي، دون التقليل من التجارب الأولى. ومع هذا فإنّ بعض النقاد يحاول أن يجد لهذا المنهج جذوراً وأصولاً في بعض الممارسات النقدية العربية التي قد تتفق جزئياً، أو بشكل عفوي مع بعض جوانب الدراسة الموضوعاتية، على غرار ما قام به حميد لحميداني[17]، الذي أشار إلى بعض الممارسات النقدية "الموضوعاتية" المبكرة عند العرب، مثل علي الراعي في كتابه (دراسات في الرواية المصرية)، وغالي شكري في كتابه (المنتمي)، وآخرين من أمثال يوسف الشاروني، وفؤاد دوارة، ومحمد مصايف، وغيرهم.

ويصف يوسف وغليسي هذا التوجه بأنه« من قبيل التعسف المنهجي »، ووجه التعسف في هذا التوجّه يكمن في« أن بعض هذه "الممارسات المبكرة" ظهرت قبل ميلاد النقد الموضوعاتي أصلاً (..) ويذكر علي الراعي أنه كتب فصول كتابه بين سنتيْ 1956 و1962، وهي الفترة التي لم يكن يُسمع خلالها بالموضوعاتية إلاّ "خاصة الخاصة" من النخبة الأدبية الغربية »[18].

فمثل هذا الرأي تُعوزه الوجاهة من الناحية التاريخية، كما أن سطحية الطرح لا تليق بناقد مثل حميد لحميداني الذي يتابع في السياق نفسه، وبطريقة تعميمية تتنافى مع ما يجب على الناقد أن يتحلّى به من صبر وأناة ومجافاة للأحكام المسبقة، مشدداً على أنّ هذا المنهج ليس في مقدوره« أن يبني معرفة متكاملة ومنهجية بالنصوص الروائية العربية، وسيكون في الحدود القصوى قادراً على أن يمتع القراء العاديين الذين يبحثون عن المعلومات العامة »[19].

وفي دائرة التعسف المنهجي ذاتها، يصنف يوسف وغليسي الناقدَ السوري خلدون الشمعة، خاصة في قوله بأنه« قد سيطر منذ بداية القرن الاتجاه الثيمي "thématics" على النقد العربي الحديث على نحو بلغ فيه التأكيد على موضوع أو مضمون العمل الأدبي حدّاً جعله يبدو وكأنه العمل الأدبي نفسه »[20].

ولا يخفى ما يميز هذا الرأي من مجانبة الوجاهة النقدية، والطرح الموضوعي، مما حدا بكثير من أهل النقد -كما يقول يوسف وغليسي - إلى أن يحسبوا« على النقد الموضوعاتي، أي "ناقد" تتوقف موهبته النقدية عند حدود اختزال مضمون النص الأدبي إلى أفكار رئيسية وتفريعها إلى أفكار ثانوية، ثم تمطيطها بلغة

سردية إلى أبعد ما يمكن، وأحرى بهؤلاء - إذن - أن يبحثوا عن أصول الموضوعاتية فيما تقدمه المدارس والثانويات من دروس(دراسة نص)، وما تقدمه الكتب المدرسية من تصنيف للشعر على أساس الأغراض: مدح، فخر، غزل، هجاء.. »[21].

إنّ ما يلحّ عليه وغليسي في هذا الكتاب الذي يُعدّ من أعماله النقدية الباكرة، هو حداثة عهد العرب بالموضوعاتية، واعتبارها بضاعة "مستوردة"، مما جعل كل محاولة للبحث عن أصول لها في النقد العربي ضرباً من المجازفة، أو المخاطرة المنهجية؛ فكثرة المصطلحات المنقولة إلى العربية واختلافها تبعاً لاختلاف الترجمة، تدعم هذا التوجه وتعزّزه.

غير أنّ المصطلح الذي يطمئن إليه في هذا الكم الهائل من المقابلات العربية هو مصطلح "الموضوعاتية"، رغم أنّ النسبة إلى الجمع في اللغة العربية التقليدية لم تكن مألوفة. وقد أذنت فيها بعض المجامع اللغوية بعد ذلك، من أجل تفادي الوقوع في اللبس، لو نسبنا إلى المفرد.

ولكنه يعود بعد سنوات من البحث والتوسع، ليسمح باستخدام مصطلح آخر، إضافة إلى "الموضوعاتية"، وهو "الموضوعية"« بالنظر إلى شهرتهما واتساع نطاقهما الاستعمالي، والقدرة اللغوية للموضوع في المعجم العربي على الإحاطة بالمفهوم الغربي إلى حد بعيد »[22].

وعموماً، فإنّ الدراسات التي تتناول الموضوع عند العرب كثيرة ومتعددة، وبغض النظر عن المحاولات الرائدة التي ميّزها الحس النقدي العميق، والانضباط المنهجي، والدقة العلمية، خاصة لدى سعيد علوش، وعبد الكريم حسن، فإن غالبية الدراسات الأخرى« لا تستند إلى نظام منهجي، ولا تُسمي مفاهيمها أو منطلقاتها(..)، وهي مكتوبة عشوائياً، ومن دون التقيّد بأي منهج أو رؤية. وكثيراً ما قرأنا دراسات نقدية، أو تحليلية حول الموت أو المرأة أو الجنس، أو المدينة والريف(..) لكنها تنحو منحى لا منهجياً قائماً على دراسة المضامين والمعاني »[23]. فقد عمدوا إلى توخي طريقة التوثيق، أو التجميع، معتمدين على جرد مختلف الصور الواردة في المتون العربية - بعيداً عن ترابطها وتواشجها - عبر التاريخ، وهذا هو عمق الاختلاف بين المقاربة الموضوعاتية ومقارباتهم.

وحين نأتي إلى تجربة علي شلق النقدية، نجد أنه عمل على تجميع الصور من الشعر العربي على النحو التالي:

القُبلة في الشعر العربي/ العين في الشعر العربي/ السمع في الشعر العربي/ الشمّ في الشعر العربي/ اللمس في الشعر العربي.

ففي كتابه الأول حول القبلة في الشعر العربي، يقوم بملاحقة ورود القبلة - وما في حكمها - على المستوى اللغوي والنفسي والتاريخي، في مختلف مراحل الشعر العربي، وفي أهم الكتب والموسوعات الأخرى؛ كألف ليلة وليلة. وبعد هذا الجرد التاريخي ينتقل إلى التحليل الفيلولوجي لتقصّي المداليل اللغوية لمفهوم كل مفردة من المفردات التي تنتمي إلى عائلة القُبلة.

ومع ذلك، فإنّ هذا العمل الطريف في حد ذاته، وفي محتوياته، يظل بعيداً عن« الإطار المنهجي لبحث الصور التي يجمعها ويرصفها في مدوّنات لها أبعاد تاريخية أكثر منها تحليلية »[24]. فقد أحصى علي شلق: قبلة الفم، وقبلة الخد، وقبلة العنق، وقبلة الرأس، وقبلة اليد، وقبلة الصدر، وقبلة القدم، أو الساق، وما إلى ذلك..

فرغم أنه قام بعملية إحصائية -وهي إحدى الأسس الموضوعاتية - من أجل جرد وتجميع صور القبلة عبر تاريخ الشعر العربي. غير أن الإحصاء هنا يظل مقيّداً بأحكام مسبقة تمثل الركيزة التي ينبني عليها موضوع القبلة.

ومع هذا، فإنّ الباحث الموضوعاتي قد يعثر في عمل علي شلق على« ما يثير بعض إعجابه، إلاّ أنّ قصر العمل على صور جامدة للقبلة يحدّ من الأبعاد العميقة لها، ويجعلها مسحاً على مستوى السطح وهو جرد يتعزّز بملابسات خفيفة لمحيط القبلة، إلاّ أنها تظل غير كافية لإيجاد موضوعاتية ما »[25].

وبهذا الشكل جاء عمله رصفاً وتكنيساً، بعيداً عن النفاذ إلى عمق صورة القبلة، وفق الآليات المنهجية المساعدة على ذلك. ولذا، فإنّ الحديث هنا يكون عن توفيق علي شلق في مشروعه وفقاً للطريقة التي سطرها لنفسه، وليس وفق الطريقة الموضوعاتية.

1 - ملاحظات ومآخذ حول مجالات تطبيق الموضوعاتية في النقد العربي:

يتضح من خلال ما مرّ بنا أنّ الخطاب النقدي العربي أصابه نوع من الارتباك حيال المصطلح المفتاحي، أو المصطلح الذي ينبغي الاتفاق عليه، وهذا ما أدى إلى تضارب حادّ في نقل المصطلح إلى اللغة العربية.

وقدّم يوسف وغليسي جدولاً مفصّلاً عن المقابِلات العربية لمصطلحات المنهج الموضوعاتي الفرنسية، اجتهد كثيراً في إحصائها والتعقيب عليها، فكانت النتائج على النحو التالي[26]:

- أسرف المعجم النقدي العربي في تلقي المفهومين (thème)، و(thématique)، حتى تجاوزت المقابلات العربية عشرة لكل مفهوم منهما؛ فكلمة (thème) ترجمت بما لا يقل عن خمسة عشر مقابلاً (ثيم- ثيمة - تيمة - موضوعة - غرض - مضمون - معنى رئيسي - جذر - ساق - ترجمة - قضية - فكرة - خيط..).

وأما كلمة (thématique) فقد ترجمت بما لا يقل عن ثلاثة عشر مقابلاً: (التيماتية - الثيمية - التيماتيكية - الغرضية - الأغراضية - الجذرية - المضمونية - المنهج المداري - الموضوعية - المنهج الموضوعي - الموضوعاتية - المواضيعية - نظرية الموضوعات..). وهذا دليل على مقدار الابتلاء الذي ابتلي به الجهاز الاصطلاحي العربي، في غياب التنسيق بين المختصين والقائمين على هذا العمل.

- تتردى وضعية الجهاز الاصطلاحي العربي كلما ازداد عدد المصطلحات الأجنبية التي تتجاور دلالياً مع كلمة (thème)، على غرار المصطلحات الفرنسية التالية:(sujet- objet-motif- racine- radical - contenu).

فرضوان ظاظا مثلاً ينقل كلمة (thème، إلى "موضوع"، وينقل(objet) إلى "غرض"[27]. في حين إن عبد السلام المسدي، قبل ذلك، اقترح كلمة "مضمون" مقابلاً لمصطلح (thème)، والمحتوى مقابلاً لـ(contenu). كما اقترح لكلمة "موضوع" مقابلَيْن اثنين هما (objet وsujet)[28].

وما يؤكد صعوبة التفريق بين هذه المصطلحات لشدة التداخل الحاصل بينها، تعليق جورج طرابيشي بأنّ« لفظة (sujet) في اللغة الفرنسية تعني في آن واحد الذات والفاعل والموضوع »[29].

ونجد محمد عناني ينقل كلمة (thème) إلى "الفكرة"، وكلمة (motif) إلى "موضوع"، كما يقابل الموضوع الرئيسي ب: (leitmotif)- اعتماداً على نظرية جيرالد برنس- معتبراً أنّ الفكرة مجرّدة، وأما الموضوع فهو مجسد.

- هناك اختلاف في التعريب باختلاف اللسان المنقول عنه، فالذين ينقلون عن الفرنسية يستعملون (تيمة). والذين ينقلون عن الإنجليزية يستعملون (ثيمة).

- هناك ترجمات لا يمكن إلاّ أن نستهجنها ونرفضها -كما يقول وغليسي - لأنها ترجمات لا تفي بالغرض إلاّ في سياقات محدودة، بعيدة عن الحقل المنهجي النقدي المقصود، على شاكلة (ساق - ترجمة - خيط..).

- ينفرد عبد الكريم حسن بالنسبة إلى صيغة المفرد (موضوعية)، من أجل تفادي النسبة إلى صيغة الجمع(الموضوعاتية - المواضيعية)، انسجاماً مع قاعدة لغوية قديمة لم يعد من الضروري احترامها في الاستعمالات اللغوية المعاصرة، بل إنّ أشد المجامع اللغوية تشددا أصبحت تبيح الخروج عليها، تفادياً للالتباس الدلالي، خصوصاً أنّ كلمة(موضوعية)التي يتبنّاها، كثيراً ما تلتبس بما هو غير ذاتي.

- ينفرد سامي سويدان باستعمال (المدار)، أو (المنهج المداري)، وقد يُعدّ ذلك مقبولاً في حد ذاته، لأنّ المدار - لغة - هو موضوع الدوران، فيغدو وكأنه المحور الدلالي الذي يقوم عليه النص، بيد أنّ العيب الوحيد في هذا الاستخدام يكمن أساساً في محدوديته التداولية .

- صعوبة تعميم مصطلح(الجذر)، بالنظر إلى سياقاته الاستعمالية المحدودة، واقتصاره - غالبا - على الأبعاد السيكولوجية للمنهج الموضوعاتي.

- الخاتمة:

إنّ القراءة الموضوعاتية عموماً هي« قراءة حرة المدخل» مثلما يقول ج. ب ريشار، غير أنّ الدارس قد يجد نفسه أحياناً، بعيداً عن حرية الاختيار، وهو ما يتعارض جملة وتفصيلا مع قول ريشار، لأنّ إضاءة الأنساق الموضوعاتية في أعمال كاتب ما، لا تتحدد إلاّ من خلال "الموضوع الرئيسي". وهذا "الموضوع الرئيسي" محدد سلفاً، وهو الذي يتحكم في مفاصل سائر الموضوعات الفرعية.

ومن ثَمّ، نقول بأنّ حرية القراءة ليست مطلقة، وإذا كان هناك هامش من الحرية، فهو في نهاية المطاف مشروط بالتقيد بالموضوع الرئيسي. فبقدر ما يدعو المنهج الموضوعاتي إلى حرية التعامل مع النصوص أثناء القراءة والتأويل، بقدر ما يستحسن أن تكون لهذه الحرية حدود يجب مراعاتها، حتى لا تُستخدم بشكل مفرط، أو متعسف، خاصة حينما تكون هناك معالم محددة تدعو للتوقف عندها. والمعالم التي ينبغي التوقف عندها هي الموضوع الرئيسي، وموضوعاته الفرعية.

فإذا كان الانضباط المنهجي مطلوباً، فإنّ مواجهة النصوص والمتون قد تفرض نوعاً من الواقع الجديد والمختلف، يقود إلى عدم الاكتفاء بالمقولات النظرية. كما أنّ هذا "الخروج" عن المنهج- إن صحّ التعبير- من شأنه أن يفيد المنهج نفسه، ويشحنه بإمدادات متجددة، تخلّصه من عبء المقولات النظرية وقيودها، بما يجعله مرناً

وذا طواعية للتكيّف مع طبيعة النصوص المدروسة، ومنفتحاً على المبادرات والاجتهادات النقدية، وهذا هو جوهر العمل الموضوعاتي.

- الهوامش:

1- كلما استخدمنا مقتبساً وردت فيه مفردة (موضوعية أو جذرية، أو مواضيعية، أو غيرها)، كمقابل للكلمة الأجنبية (thématique)، وضعنا أمامها كلمة [موضوعاتية] بين قوسين، لرفع الإلتباس. وأما إذا استخدمت كمقابل للكلمة الأجنبية (objectivité) تركناها على حالها. وهذا سعيا منا لتوحيد المصطلح. وعموماً سنحتفظ لكل ناقد بالمصطلح الذي يتبناه عند الإقتباس. وفيما عدا ذلك سنحاول توحيد المصطلح وضبطه وفق الرؤى التي اتفق عليها أغلب النقاد العرب.

2 - عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعي، نظرية وتطبيق، ط3، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت، 1983، ص 22

3 - سعيد علوش، النقد الموضوعاتي، د ط، مكتبة عالم الفكر، الرباط، د ت، ص 23.

4- J.P. Richard, l'univers imaginaire de Mallarmé, éd, Seuil, Paris, 1961, p 24

5- dictionnaire Quillet de la langue Française, librairie artistique, Quillet, Paris, 1983. P 151.

6- dictionnaire encyclopédique, Larousse,1 vol, en couleurs, Jean Didier, Lizou-sur-our.c.a, France 1979, p 1390.

7 - مسعودة لعريط، النقد الموضوعاتي، ط1، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، 2006، ص 14 - 15.

8 - المرجع السابق، ص 15.

9 - ينظر، يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 152 – 153 - 154

10 - سعيد علوش، النقد الموضوعاتي، ص 10

11 - عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعي، نظرية وتطبيق، ص 46

12 - المرجع نفسه، ص .ن

13 - عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعي، نظرية وتطبيق، ص 46 - 47

14 - سعيد علوش، النقد الموضوعاتي، ص 8 - 9

15 - ينظر، مسعودة لعريط، النقد الموضوعاتي، ص 5 - 6

16 - يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية. د ط، إصدارات رابطة إبداع الثقافة الجزائر، 2002، ص 170

17 - حميد لحميداني، سحر الموضوع، د ط، مشورات دراسات سال، المغرب 1990، ص 45 وما بعدها.

18 - يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، ص 172

19 - حميد لحميداني، سحر الموضوع، ص 88

20 - خلدون الشمعة، النقد والحرية، د ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1977، ص 186

21 - يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر، ص 172 - 173

22 - يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي. ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 159

23 - حاتم الصكر، ترويض النص، دراسة للتحليل النصي في النقد المعاصر – إجراءات ومنهجيات، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2007، ص 199.

24 - سعيد علوش، النقد الموضوعاتي، ص 57.

25 - المرجع نفسه، ص 58

26- ينظر، يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، من ص154 إلى 159.

27 - رضوان ظاظا، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة، د ط، عالم المعرفة، الكويت، مايو/أيار 1977، ص 117 - 118.

28 - عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، د ط، الدار العربية للكتاب، تونس - ليبيا 1984، ص 169 - 233

29 - جورج طرابيشي، البنيوية، ترجمة، د ط، دار الطليعة، بيروت 1985، ص 10

. قائمة المراجع:

أ - باللغة العربية:

1- جورج طرابيشي، البنيوية، ترجمة، د ط، دار الطليعة، بيروت 1985.
2- حاتم الصكر، ترويض النص، دراسة التحليل النصي في النقد المعاصر - إجراءات ومنهجيات، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2007.
3- حميد لحميداني، سحر الموضوع، د ط، مشورات دراسات سال، المغرب 1990.
4- خلدون الشمعة، النقد والحرية، د ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1977.
5- رضوان ظاظا، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة، د ط، عالم المعرفة، الكويت، مايو/أيار 1977.
6- سعيد علوش، النقد الموضوعاتي، د ط، مكتبة عالم الفكر، الرباط، د ت.
7- عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعي نظرية و تطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، 1983
8- عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، د ط، الدار العربية للكتاب، تونس - ليبيا 1984.
9 - عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي في الرواية المغربية، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986.
10- محمد مرتاض، الموضوعاتية في شعر الطفولة الجزائري، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993.
11- مسعودة لعريط، النقد الموضوعاتي، ط1، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، 2006.
12- يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
13- يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية. د ط، إصدارات رابطة إبداع الثقافة الجزائر، 2002.

ب - باللغة الفرنسية:

1- dictionnaire encyclopédique, Larousse,1 vol, en couleurs, Jean Didier, Lizou-sur-our.c.a, France 1979.
2- dictionnaire Quillet de la langue Française, librairie artistique, Quillet, Paris, 1983.
3- J.P. Richard, l'univers imaginaire de Mallarmé, éd, Seuil, Paris, 1961.